أهمية الصناعات وأثرها على الأسر والشعوب

قبل أن نبدأ حديثنا عن الصناعة وأثرها على الأسرة والمجتمع نورد قولًا طريفًا جاء في خطاب الأستاذ «محمد كرد علي» بمناسبة حديث عن الصناعات في خطط الشام :

رأينا في الدهر السالف سكان الجنوب وسكان الشمال من فرنسا يقتتلون ويتحاربون ، ولم تنقطع شأفة الفتن من بينهم إلا عندما اشترك الجنوبي مع الشمال في الأعمال الاقتصادية فأصبحت مصلحتهما واحدة .

وهكذا نستطيع أن نستنتج من ذلك مدى أهمية أثر الصناعات على أفراد الأسرة الواحدة وأبناء البلاد الواحدة .

إنه أثرٌ بناءٌ وعظيمٌ ، إذ كان فيه التعاون على ما يرضي الله ورسوله في تحقيق احتياجات البلاد والمصلحة المشتركة للأفراد والمجتمع وجماعاته .

مع الأخذ بعين الاعتبار أهمية تكامل الصناعات اليدوية مع الصناعات الآلية لتلبية حاجة المجتمع .

قال عليه الصلاة والسلام : «**علموا أولادكم السباحة والرمي ، والمرأة المغزل**» .

كما قال عليه الصلاة والسلام : «**علموا أبناءكم السباحة والرماية ، ونِعْمَ لهوِ المؤمنة في بيتها المغزل**» [1] .

وقيل في الأثر : إن الله مع الجماعة .

---

(١) الجامع الصغير للسيوطي ، ج٢ ، (ص١٦١) .

تعليم الصنائع والحصول على ملكتها يزيد صاحبها ذكاء

يقول ابن خلدون في مقدمته [١] :

وحسن الملكات في التعليم والصنائع وسائر الأحوال العادية، يزيد الإنسان ذكاء في عقله وإضاءة في فكره بكثرة الملكات الحاصلة للنفس ، إذ قدمنا أن النفس إنما تنشأ بالإدراكات وما يرجع إليها من الملكات ، فيزدادون بذلك كيساً لما يرجع إلى النفس من الآثار العلمية ، فيظنه العامي تفاوتاً في الحقيقة الإنسانية وليس كذلك .

ألا ترى إلى أهل الحضر مع أهل البدو ، كيف تجد الحضري متحلياً بالذكاء ممتلئاً من الكيس ، حتى إن البدوي ليظنة أنه قد فاتة في حقيقة إنسانيته وعقله ، وليس كذلك .

وما ذاك إلا لإجادته من ملكات الصنائع والآداب ، في العوائد والأحوال الحضرية ، ما لا يعرفه البدوي . فلما امتلأ الحضري من الصنائع وملكاتها وحسن تعليمها ، ظن كل من قصر عن تلك الملكات أنها لكمال في عقله ، وأن نفوس أهل البدو قاصرة بفطرتها وجبلتها عن فطرته ، وليس كذلك .

فإنا نجد من أهل البدو من هو في أعلى رتبة من الفهم والكمال في عقله وفطرته ، وإنما الذي ظهر على أهل الحضر من ذلك فهو رونق الصنائع والتعليم ، فإن لهما آثاراً ترجع إلى النفس كما قدمناه .

والعكس صحيح فإن الأمة أو البلد التي تدع الأجنبي يصنع لها احتياجاتها فإنها يصاب عقل شبابها وأهلها الخمول والبعد عن الصفات التي يكتسبها

---

(١) ابن خلدون عبد الرحمن أبو زيد ، المقدمة شرح وتعليق علي عبد الواحد وافي ، مصر ، دار نهضة مصر ، الطبعة الثالثة ، فصل (٣٣) ، (ص٣٣٩) .

الإنسان عندما يصنع احتياجاته معتمدًا على نفسه ، وهذا ما لا يريده الاستعمار من أجل إضعاف الشعوب فيريدها كما أراد الشاعر في المعنى الذي مقصده أن تجلس ضعيفة قاعدة فهي المطعمة وهي المكسوة ، بقوله :

دع المكارم ترحل لبغيتها واقعد فإنك الطاعم الكاسي

علمًا بأن الإنسان يتميز عن الحيوان بأنه يصنع عاداته وأشياء .

مما سبق نستنتج أن حرص الجماعات والمجتمعات على العمل الصناعي ، فإنه يجعل شعلة الذكاء تتوهج ، وتنمي الروح الجماعية المشتركة القائمة على التعاون على العمل المجتمعي ، والبعد عن المشاكل ، كل لما يسر له ، وهذا ما سنراه واضحًا على الأسرة في تراثنا التي كانت تضم جداتنا وأمهاتنا في أن تكون حياتهم قائمة على التنظيم والإنتاج ، والتفاهم والتعبير ، وزرع المحبة بين القلوب ، وأن كلًا من الرجل والمرأة لهما دورهما الأسري من جهة والمجتمعي من جهة أخرى ، ويبدو هذا واضحًا في بعض المقالات التالية ، ومنها التي بعنوان : عائلاتنا الصناعية تواجه أعمال التقريب .

ونرى أيضًا أن المجتمع الياباني بما يضم من أُسَر وجماعات ومجتمع له تجربته الخاصة والمحلية في العمل من أجل بناء الاقتصاد المجتمعي فبإمكاننا أن ندرسها ونطور تجربتنا التراثية على ضوء معطيات العصر .

*****

جدتي والصناعة

رحم الله الأيام التي قضى أخي الأكبر بعضًا من سنوات دراسته الأولى في الكُتَّاب ، حيث كانت أمي تخيط له محفظة من القماش يعلقها على كتفه ، ويحفظ بها القرآن الكريم والعلوم التي تنفع الناس ويكفي أن تلك المحافظ كانت من صنع نساء بلادي وأمتي .

ورحم الله الأيام التي كنت أراقب بها جدتي وهي تفتح صندوق ملابسها المزين بالصدف ، فأرى اللفائف المطرزة بالأغباني «ما يسمونه بالبقشة» ، وقد رتبت بداخله بكل نظام ، وعندما كانت جدتي تتناول أحد ثيابها لكي ترتديه ، كانت تفوح منه رائحة النظافة ورائحة الصابون المعطر الذي كانت تضعه في صندوقها وبين ثيابها ، وهو من صنع شباب بلادي وخيرات أمتي .

كانت أيامًا فيها من التراحم والتعاطف في العلاقات بين الناس والشعور بالسعادة أفضل بكثير مما نشعر به الآن .

كنا نسمع ونرى عن تمسك أجدادنا بمبادئ الدين أكثر من تمسك الوالد بولده وبماله ، ويضربون الأمثال على ذلك ، بل إنهم يعتبرون أن المصيبة في الدين تأتي في المرتبة الثانية بعد المصيبة في العقل .

إنها في نظري أفضل من هذه الأيام التي كثر فيها استعمال «شنط السامسونايت» الأمريكية ، وروائح عطور شركة «كريستيان ديور» ، ومنجاتها ومظاهر الاستهلاك بإسراف ودون محاسبة للنفس للبضائع الأجنبية والأثاث وغرف النوم ذات «الماركات» المتعددة والتابعة للشركات الأجنبية .

لم يعد من المهم في ذلك سواء أكانت الحاجة ضرورية أم كمالية وهل من صنع يدٍ مسلمة أم غير مسلمة .

لقد رأيت المرأة منذ سنوات عديدة في إحدى قرى المملكة هي تمسك بالمغزل في يدها وتصنع بواسطته خيوط الصوف في أوقات فراغها أو أثناء اجتماعها مع جاراتها في جلسة العصر لشرب الشاي ، وينطبق عليها قول رسول الله : «**نعم لهو المرأة في بيتها المغزل**» .

ورأيت المرأة المسلمة في بلدان متعددة وهي تطرز العباءات أو تعمل على إتمام عملية جزئية من صناعة تشتهر بها بلادها أو تنتجها مصانعها وكان يجلبها لها زوجها لِتُسَلِّيَ بها نفسها وتملأ فراغها ويعود ذلك عليها بالفائدة الاقتصادية وعلى أسرتها ومجتمعها ، وبعد تطور هذا المرفق أطلق عليه اسم الصناعات المنزلية ، فالمرأة تستطيع وهي جالسة في بيتها أن تدعم صناعة تشتهر بها بلادها ، وخاصة إذا تعاونت مع أفراد عائلتها الكبيرة .

في ذلك الوقت كانت عاطفة الأمومة عندها واسعة لا حدود لها ، فقد رأتها عيناي في إحدى المناسبات التي اعتدى أعداء الأمة من المستعمرين على شباب ذلك البلد الذي كان في أقصى المغرب العربي ، رأيتها وقد تملكها الوجوم والتأثر ، وأخذت تذرف من الدموع ما يجعلك تظن أن ذلك الشباب الذين أصابهم مكروه قد حملت بهم ، أو ضمتهم أحشاؤها في يومٍ مضى ، ثم تأخذ في تصور حال أمهم المسكينة ماذا جرى بها ؟ ثم تبادر إلى التبرع ببعض حليها من أجل شراء السلاح .

إن حديثي هذا لا ينفي وجود كثيرات من نساء أمتي في الوقت الحالي بقوة هذه العاطفة ولكن ما قصدت إليه هو أن أعداء أمتي قد عملوا ولا يزالون يعملون على تغيير ثقافتها وإشغال المرأة وإلهائها عن وظيفتها تجاه أولادها وأسرتها ، وتجاه مجتمعها لكي يستهلكوا من هذه العاطفة بما يضعف من قوة

تأثيرها وفعاليتها التي تخيفهم .

وبمعنى آخر فقد عملوا ولا زالوا يعملون على امتصاص وقتها البناء الذي يمكن أن تقدم من خلاله خدمة حقيقية لمجتمعها سواء في مجال الفكر أو التربية أو الصناعة أو أي مهنة علمية أو عملية تقوم بها في أوقات فراغها .

بل يريدونها أن تكون زبونة مستديمة من زبائن دور الأزياء الغربية تأخذ بآخر صرعاتها في العالم «الموضة» وتقبل على شراء كل بضاعة مستوردة من عالم الإفرنج وبذلك تتبلد عاطفتها تجاه أحداث أمتها ؛ لأنها أصبحت استهلاكية [1] الطبع .

وأنا لا ألوم المرأة ، فالرجل عليه الوزر الكبير والمسؤولية العظمى في أن يجعل المرأة تنحو هذا المنحى عندما يسير في طريق الجاهلية ويبتعد عن جوهر الإسلام عقيدة ونظامًا ، حياة وسلوك ، سواء في أوقات فراغه وأجازاته ، أو من خلال أسلوب معاملاته واهتمامه بأبنائه ومدى رعايته لأسرته ومسؤوليته نحو أمته وكذلك الحال عندما يرى الأبناء آباءهم وأمهاتهم لا يتمسكون بخصائص أمتهم وعقيدتها ، فمن باب أولى لهم ألا يلبسوا «أي : الشباب» إلا من منتجات الشركات الأجنبية ، سواء من الجوارب أو الأحذية أو يستعملون العطور التي تحمل شعار «كريستيان ديور» ، أو أن تكون من إنتاج أزياء «سان لوران» وما إليه ولو كان سعرها باهظًا .

فمثلًا نجد «الموضة» ودعايتها تجعل المرأة تجري لاهثة وراء تلبية رغباتها النفسية لإشباع رغبة التفوق عندها وتجعلها تنفق الإمكانات المادية بسخاء ،

---

(١) يحذر الدكتور عبد الوهاب المسيري من الاستهلاكية ، إرجع إلى كتابه (الهوية والحركية الإسلامية) ص٩١ .

ولكنها في النهاية ، وعلى مسار الواقع تجد غيرها قد سبقها إلى أحدث مما تعبت وهي تجري وراءه ، وما أنفقت من وقتٍ ومال ، وهكذا تستمر عملية المنافسة التي تحكمت بها علوم الأعداء وفكرهم وفنونهم ودعاياتهم لصناعتهم في نفوسنا ولم تتمكن علومنا وفنوننا من السيطرة على هذه العملية والسير بها نحو ما يخدم حضارتنا ويعطيها الصفات المتميزة في الفكر والسلوك والولاء بما يجعلنا نتشبث بها .

ثم إذا نظرت إلى داخل نفس تلك المرأة اللاهثة وراء آخر المبتكرات الغربية وصرعاتها ، وجدتها تعيسة قلقة غير مطمئنة ، لأن الجمال والسعادة في نظرها ، أصبحت أشياء مظهرية مقترنة بالألوان والأصبغة وصناعة التجميل والأناقة التي يصنعها لنا الغرب ، وتعمل لها فنون دعايته ، فتتفنن في تصوير عوالمها الوردية وأجوائها الخيالية التي تبتكرها كل يوم لتكون طعمًا وسرابًا للذين يجرون وراءها .

والغريب في الأمر ، أن فنوننا وآدابنا ومسلسلاتنا المستوردة تقوم بتغيير ثقافة بناتنا وأبنائنا ، تستخدم مطية لعلوم الدعاية وفنونها لكي تخدم مصالح تلك الشركات ، وذلك الفكر بعد أن نلبسها الثوب المحلي ونجعلها تتكلم لغتنا ونحسبها أنها تتكلم من واقع فكرنا ولكنها العكس تمامًا فهي تتكلم بلغةٍ غير لغتنا وبفكرٍ غير فكرنا وتخدم صناعة غير صناعتنا .

ويقال : إن الدول الاستعمارية اهتدت إلى وسيلة من الاستعمار الجديد وذلك بأن تعطيها كل شيء[1] ، ومن هنا تستطيع أن تقتل البلاد ، فإذا أسرفنا

(١) ارجع إلى ما ذكرناه بشأن جعل الغرب الأوربي الشرقي هو المطعم والمكسو فقد حرمه من آدميته في معادلة سوردل الذي جعلت الغربي هو صانع الحضارة ، والشرقي هو المستهلك للحضارة ، ارجع=

على أنفسنا وسمحنا لها باستيراد المآكل والمشارب والملابس من بلاد الإفرنج ، وحتى النتاج الفكري والمسميات لهيئاتنا التي تمثل فكرنا وهي ليست موجودة في قاموس تراثنا الإسلامي ، فإن ذلك يقودنا إلى الموت وإلى الجاهلية الحديثة باسم التقدم والمدنية .

يقال : إن غاندي الزعيم الهندي المعروف ظن في يوم من الأيام أنه يستطيع أن يكون قويًا إذا قلّد الإنكليز في مأكلهم ومشربهم وملبسهم بعد أن تساءل في نفسه : لماذا قليل من الإنكليز يحكمون الملايين من الهنود ؟ ولم يجد لذلك تفسيرًا لا في الأسلحة ولا في أي شيء آخر ، فأخذ يشرب الخمر كالإنكليز ويأكل اللحم مثلهم ، ولكنه نظرًا لأنه قد ولد في بيت نباتي ، فقد ضعفت صحته ، وتعب من الخمر تعبًا شديدًا واكتشف بعد ستة أشهر ، أن شرب الخمر وأكل اللحم لا يجعلانه قويًا كالإنكليزي ، ولكنه اكتشف أنه يكون أقوى تجاه الإنكليز فيما لو تشبث بصفاتٍ أخرى من قِيَمِهِ ، ومن هنا جاء في تاريخ غاندي أنه عاد إلى اللبس البدائي الهندي الشبه عادي ، وعاد إلى العنزة التي كان يشرب من لبنها ، وبدأ كفاحه بدعوة الهنود إلى مقاطعة الأقمشة الأجنبية ، وأن يصنعوا بالمغزل البيتي أقمشتهم بأنفسهم ، وقد حققت هذه الحركة قوة للهند لم تكن موجودة من قبل .

وينطبق تقليد غاندي للإنكليز في بادئ الأمر على قول ابن خلدون منذ قرون بأن «المغلوب مولع بتقليد الغالب» .

كما يقال أيضًا : بأن غاندي سُئل قبل وفاته عن المعنى الذي يريده للمجتمع

= إلى كتاب (العودة إلى الذات) لعلي شريعتي ـ القاهرة ، مدينة نصر ، الزهراء للإعلام العربي ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .

الهندي فقال : «أنا أريد المجتمع وحده مستقلًا سياسيًا وإداريًا ، في كل ما يعنيه من شؤون الحياة الضرورية ، وبعد أن سُئل عمَّا يعنيه من شؤون الحياة الضرورية أجاب : الغذاء والملبس ، وأن تزرع الأرض بكل الاحتياجات الضرورية ويخصص قسم للمواشي ، نظرًا لأهميتها بالنسبة لثقافتهم وتقديسهم لها ، وإذا زاد فائض من الأرض يزرع بمزروعات ثانوية .

وأضاف : إنه يجب أن يكون للقرية نادٍ ومدارس وماء للشرب ، هذه هي صور المجتمع المثالي عند غاندي ، وهذه الصورة المثالية نراها مختلفة بالنسبة للمجتمع الأمريكي الذي يضيف وجود المراقص ، أو صورة المجتمع المثالي عند المسلمين الذي يختلف عن كِلَا المجتمعين .

ولعلَّ إنشاء السوق الإسلامية المشتركة سيعوضنا عن الولاء الذي فقدناه نحو الصناعات التي تنتج من عرق وكفاح شباب الأمة ، وذلك لاعتبارات متعددة .

خطر الإعلام الموبوء :

عندما كنا صغارًا أذكر بعضًا من أقوال العلماء أثناء خطبة الجمعة عبر الإذاعة ، إذ لم يكن هناك راءٍ بعد ، كان الكثيرون منهم يحذرون الآباء من خطر المجلات الأجنبية [١] التي تدخل إلى بيوتهم وضرورة إبعادها عن أيدي أبنائهم وبناتهم ونسائهم ، وخصوصًا ما كان يتعلق منها بأزياء الملبس والمأكل والمشرب ، ولكن تُرى هل أثرت كل تلك النداءات على مجتمعنا في ذلك الوقت ، ولماذا لم تؤثر ؟ بل نجحت تلك المجلات إلى حدٍّ ما ، في تحقيق

(١) انظر : إلى مقالتنا عن الغذاء المموه (ص٨٣) ، من هذا الكتاب ، وارجع إلى نوعية الثقافة الحديثة التي تنشر بين أجيالنا في طريقة المعيشة وأنماط السلوك (ص٧٣) وما بعدها .

أهدافها في إحداث التغيير الذي تهدف إليه ، وما يتعلق بالإجابة على هذا السؤال أورد تساؤلًا سمعته من أحد علماء الدين عبر الإذاعة يقول فيه : «لماذا تغيرت الدنيا عن السابق ؟ كان العلماء يتكلمون والناس كلهم آذان صاغية لهم ويسرعون إلى العمل بأقوالهم ، فلماذا لم يعد نصح العلماء مؤثرًا كما كان في الماضي؟

السبب يعود لتغريب التعليم ، فالمدارس الإسلامية العالية التي كانت تقوم بدورٍ متممٍ للمسجد في عمليته التعليمية والتي تتلاقح فيها علوم الدين مع علوم الحياة وتتوفر فيها الاستعدادات للأجواء الثقافية والمناقشات والمناظرات العلمية ، حيث يتم تعاون أهل الفكر على معالجة مشكلات المجتمع والخروج بحلول عملية لها ، كانت هذه المدارس آخذة في ذلك الوقت بالضعف ، وتلاشي مفعولها وتأثيرها على الساحة الفكرية ، وذلك لعدم وجود رعاية لها وتجديد بنائها أثناء النقلة الحضارية التي تمت في ذلك الوقت ، بل كان الاستعمار وغزوه الفكري يسعى على العكس من ذلك تمامًا ، فيعمل على حصر فاعليتها وحصارها لكي تموت وتندثر صورتها ، ويعمل على بناء وصنع بديل عنها ، وهي مدارس التعليم المدني والجامعات الحديثة التي شوه مفهوم التعليم فيها وفصله عن تراث الأمة وثقافتها ، ونظم أساليبها وثقافة أبناء الوطن بما يخدم أغراضه ، كما استعان بتعليم شباب الأمة عن طريق البعثات ، وهكذا انتشرت باسم الحداثة والتقدم صورة هذه المدارس والجامعات في أنحاء الأمة العربية والإسلامية ، ففي ظل غياب أو تغييب إنماء الفكر الإسلامي الأصيل نتيجة جهود الاستعمار وغزوه الفكري السابق ذكره ، فقد ساعد ذلك على إملاء الفراغ الصناعي للمنتوجات الأجنبية واختراعاته في هذا المجال ، فقد وصلتنا الدعايات الكثيرة مع اختراع خيط النايلون

والأصبغة والمواد الكيماوية المختلفة ، وساعد هذا الغزو تقدم فنون صناعة الصورة والطباعة واستخداماتها كوسيلة للدعاية ، مع ضعف المقاومة لدينا وكذلك عن طريق تحكمهم في ظروف مقدراتنا ، كل ذلك ساعدهم على أن تتضافر علومهم وفكرهم الاستعماري وتسخر فنونهم لملء ذلك الفراغ الفكري والثقافي والاقتصادي الذي كانوا يصنعونه بأنفسهم ، ثم يسخرون الإعلام الحديث وفنونه لكي يلجأ المجتمع إلى ملئه حسب نظرية ملء الفراغ في الشرق الأوسط «لجون فوستر دالز» .

وهكذا راجت منتجاتهم وبضائعهم على حساب تقدم صناعتنا على مرِّ الأيام ، وبتنا نشعر بتفوقهم الحضاري علينا ، ومن ثم تتحسن بضائعهم شيئًا فشيئًا نتيجة تصريفها في أسواقنا ، وتزيد عقدة الأجنبي عندنا ، وهناك عامل الوقت والزمن الذي يمر سراعًا على حساب أمتنا وتقدم صناعاتها وازدهارها .

وهكذا أصبحنا نشعر بأنه إذا لم تكن الشهادات في آدابنا وعلومنا وفنوننا معتمدة من جامعات أوروبا وأمريكا حيث يأتينا الشاب بطريقة تسريحته الجديدة فإن هذه كلها ليست بآداب أو علوم أو فنون يوثق بها ، كما يمرحون إلينا بأن التعليم عن طريق المشايخ ليس تعليمًا إلا ما يبصمون عليه ، إنه تعليم أو فنون أو آداب معترف بها لديهم .

وبهذه المناسبة يجب أن نتذكر دائمًا أن شخصية الملك فيصل ~ الذي كان تعليمه على يد المشايخ ، قد استطاع بجهده الشخصي أن يواصل اطلاعه على علوم عصره في مجاله بجهده الخاص ، وتمكن بذلك من خدمة بلاده ، وقضية أمته على أحسن مستوى ، واستطاع أيضًا أن يقف في وجه التيارات المعادية للإسلام بكل صلابة وثبات وقدرة على التحرك .

مع الصناعة الوطنية (١)

إن أي تنمية لا تتفق مع ذاتية المجتمع بما تتضمنه من عقيدةٍ وأصالةٍ تاريخية وأهداف ، فإن النتيجة قد تكون هي ربحًا ماديًا مع خسارة للمعاني والقيم والعادات التي هي سر قوته .

وفي زحمة الحياة ومع مسيرة التوفيق بين ماضينا وحاضرنا لبناء مستقبلنا ، ومع الرغبة في أن تكون التنمية تتناسب مع قدرات المجتمع وأن تكون متكاملة النواحي التي يحتاج إليها مجتمعنا الحاضر والمستقبل ، وتستغل جميع القدرات الذاتية لإمكانيات أفراد الأسرة ، يفكر الإنسان بالمجالات التي يمكن للمرأة أن تعمل بها .

هناك قول مفاده : «إنه ما دامت المرأة في مجتمع المملكة لم تتمكن من أن تملأ الشواغر في مجال التدريس الذي يحتاج إليه مجتمعها ، فكيف لها أن تعمل في مجل آخر غيره؟» .

إن هذا القول فيه بعض المعقولية ، ولكنه بنفس الوقت يتجاهل الميول والقدرات والإمكانيات في طاقات المرأة بالنسبة لنوعية العمل كما يتجاهل رغباتها في أجواء التزاماتها نحو أسرتها من بيتٍ وزوجٍ وأولاد ، كما يتجاهل التسهيلات الحضارية التي أصبحت متيسرة لها ، ففي تركها أو تناسيها ، قد يضيع على المجتمع طاقات ثمينة كان بإمكانه أن يحسن استغلالها في سدِّ احتياجاته ، أو يتم استقطابها لكي تسير في خط لا يحقق توظيفًا سليمًا ومنتجًا ، بل تسير وفق احتياجات المصلحة الأجنبية ، كالعمل التجاري الذي يعتمد على تصريف الإنتاج الأجنبي داخل البلاد كما هو الحال بالنسبة للمحلات التجارية ، أو افتتاح دُورٍ للأزياء تعتمد على الملابس والبضائع المصنَّعة في

الخارج صناعة وتصميم أفكار بما يساعد على اضمحلال عاداتنا الإسلامية وأخذنا بعاداتٍ جديدة ترتبط بفكرهم وحضارتهم ومناسباتهم .

فالقضية أننا بحاجة إلى بناء حضارةٍ تنطلقُ من ذات المجتمع وعقيدته ، كما تحقق له شخصيته بوضوح دون اضطراب أو تمويه ، بل أن يكون بناءً بفكر إسلامي ومتمايزًا عن غيره من الحضارات في جميع منطلقات الحياة .

فمثلًا لا نريد عملًا للمرأة يزاحم الرجل في وظيفته أو يساهم في خلق أزمة من المواصلات جراء خروجها إلى المصنع ، ولا نريد عملًا للمرأة يساعد على تسويق بضائع أجنبية لكي تروّج في أسواق بلادنا ولتتمكن إذا خرجت من بيتها فإن هذا لا يتنافى مع وظيفتها تجاه أفراد عائلتها ، وأن يكون خروجها من أجل سببٍ أو حاجة تمسُّ المجتمع بشكلٍ ضروريٍ كالتدريس والتمريض والوظائف الفكرية الهامة أو العمل في المشغل أو المصنع في الحي .

ولو رجعنا إلى إسهامات المرأة العربية المسلمة في الجزيرة العربية بالصناعة وتعرّفنا إلى الأعمال التي سَكَتَ عنها الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ، أو ابتسم لها عندما سئل عنها لأعطتنا الرموز التي تساعدنا على توجيه عمل المرأة والتخطيط له بما يحقق تكامل عجلات التنمية ولعلها من النوع الذي كان يمارس إما داخل المنزل أو قريبًا منه على الأغلب ، ولكن من مميزاته العامة أنه لم يقتصر على تعليم القراءة والكتابة ، كما أنه لم يكن مرتبطًا فقط بمسألة الغنى أو الفقر ، ولكنه كان مرتبطًا بأسبابٍ أخرى .

فقد ذكر التاريخ أنه حتى في البيئات الغنية ، فقد أسهمت المرأة بطلاء النوق ، كما ساهمت بأنواع من الصناعات المختلفة .

ففي مجال صناعة الغزل والنسيج ، كان ممن اشتهروا بالغزل السيدة عائشة

أم المؤمنين والسيدة سلمة التي كان «زياد السكن» كلما دخل عليها وجدها تغزل بمغزل في يدها فسألها أكلما أتيتك وجدتُ في يدِك مغزلًا ؟ فأجابته بكلمتها الواعية التي تقتل وقت الفراغ : إنه يطرد الشيطان ويذهب بحديث النفس ، وإنه بلغني أن رسول الله ﷺ قال : «**أعظمكن أجرًا أطولكن طاقةً**» ، وقال الرسول ﷺ أيضًا : «**نعم لهو المؤمنة في بيتها المغزل**» ، وقد اعتبر شعراء العرب المغازل في أيدي النساء كالرماح في أيدي الرجال .

وكما أسهمت المرأة في الجزيرة العربية بصناعة الغزل والنسيج ، أسهمت أيضًا في صناعة الحصر وزخرفتها ، ومن أبرع صانعات الحصر المزخرفة السيدة أم صفية خولة ، وقد أشاد النابغة الذبياني بالبراعة في هذه الصناعة قائلًا :

كأن مجر الرامسات ذيولها عليه حصير نمقته الصوانع

وأسهمت المرأة في صناعة تقويم الرِّماح ، منهن السيدة اليمنية ردينة التي تنسب إليها الرماح الردينية حتى اليوم لأنها كانت تزاول صناعة تقويم الرماح الحربية بِهَجَر .

وأسهمت أيضًا في صناعة دبغ الجلود بعد إزالة اللحم عنها ، وهنا تروي بعض الأمثال العربية المتصلة بهذه الصناعة منسوبة إلى المرأة دون سواها ، كالمثل الذي يضرب لمن يزاول ما لا يحسنه من العمل مثل قول العرب : «حلأت جارية عن كوعها . والحلء هو قطع اللحم عن الجلد» .

ومن البارعات في صناعة الدبغ السيدة أسماء بنت عميس التي زارها النبي الكريم يومًا وقد دبغت أربعين جلدًا بإتقان وبراعة .

وأسهمت المرأة العربية في أثناء وقت السلم أيضًا وفي فصل الربيع بمزاولة

جني نبات الكمأة «الفقع» من الأرض وممن برعن في ذلك السيدة حليمة بنت فضالة وصواحبنها من كلدة .

وأسهمت المرأة العربية في صناعة حلب اللبن من الإبل مستعينة بهذا العمل الشريف على العيش الكادح النظيف شأنها في ذلك شأن أخواتها الفقيرات اللاتي كن يزاولن رعي الإبل والغنم كسلامة بنت الحر أو سلامية العنبية التي يحدثنا ابن حجر في الإصابة أن الرسول ﷺ مر بها في بداية الدعوة الإسلامية وهي ترعى غنمًا لأهلها فسألها : «**يا سلامة بِمَ تشهدين؟**» ، قالت : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، فتبسم الرسول الإنسان ضاحكًا من قولها ومعجبًا بها ، وإن دلّ هذا على شيء فإنما يدل على أن مزاولة المرأة الفقير للرعي لا يعيبها ، فالعمل الشريف كائنًا ما كان فإنه لا يعيب صاحبه .

فمن واجب القطاع الأهلي والحكومي أن يقيم الصناعات التي يمكن له أن يستفيد من طاقات المرأة وهي في بيتها أو حيها ، ويكون عملها مكملًا لعمل الرجل .

فكما استطعنا أن ننظم المؤسسات الصحية والمستشفيات وكثيرًا من المرافق العامة ، بحيث يستفيد منها الرجالة على حدة والنساء على حدة .

كذلك الحال بالنسبة لإقامة بعض المصانع أو المشاغل التي يحتاج المجتمع إلى قدرات المرأة بقدر معلوم ، مع مراعاة تقدم وتحول الصناعات من يدوية إلى آلية وتطور تكنولوجيتها .

لنفرض أن مصنعًا للنسيج والحياكة يعمل فيه الرجال ، فقد كنا نرى أجدادنا هؤلاء كثيرًا ما يستعينون بزوجاتهم أو أخواتهم على إتمام أجزاء من

العملية التي يقوم بها المصنع وهن في بيوتهن كالعمليات التي تحتاج إلى دقة ومهارة في أعمال الإبرة والتطريز ، كما أنه من واجبنا أن نتلافى الأخطاء التنموية التي وقعت فيها بعض البلاد العربية والإسلامية ، مثل إتاحة الفرصة للمرأة ، لمنافسة الرجل على وظائفه وفتح المجال أمام المرأة للعمل بدرجة خلاء البيوت من النساء ، وترك تربية الأطفال للخادمات أو للمربيات ، ومزاحمة المرأة للرجل في المواصلات العامة .

فإذا كانت هناك قناعة لدى الرجل قبل المرأة ، والكبير قبل الصغير ، والعالم قبل الجاهل ، بأهمية العمل الذي تقوم به المرأة في خدمة مجتمعها لتحقيق أهدافه النبيلة ، ومن أجل الاستغناء عن الخبرات والبضائع الأجنبية التي تؤثر على المدى البعيد على المعركة الحضارية ، فإنه سيتحقق من ذلك حركة تكافل اجتماعي حتمية ، وتعاون أهلي على تربية الأجيال والأبناء ، كما أنه بهذا يتم ضبط عملية استخدام طاقات المرأة كَمًا وكيفًا .

ونبتعد ما أمكننا عن الشبهات التي دخلت علينا مثل مبادئ الحريات التي نُوِدي بها في هذا العصر ، وهي دخيلة على مجتمعاتنا لأنها تتنافى مع الإسلام ، هذه المبادئ قد خلقت صراعًا بين المرأة والرجل ، ومعركة لا مبرر لها ، وكذلك سببت تفككًا وتنافرًا بين الأجيال المختلفة ، وفي هذا إضاعة للأجيال القادمة الذين هم شباب المستقبل .

أحسن الكلام :

قيل : بدلًا من أن تلعن الظلام أوقد شمعة فيه .

كيف أعطتني مديرتي درسا في التربية القومية والاقتصادية ؟

أذكر عندما كنت طفلة صغيرة أدرس في أوائل المرحلة الإعدادية ، وبينما كنا

في الفصل نستمع إلى درس اللغة العربية الذي كانت تشرحه لنا المدرسة بإخلاصها المعهود ، دخلت على الفصل مديرة المدرسة وأخذت تستمع إلى شرح الدرس من المُدرسة للفصل وبينما كانت تراقب أو تنظر إلى كل واحدة منا أثناء جولتها لاحظَتْ أني أكتب بالقلم المعتاد وهو عبارة عن حسكة وتُدخل في رأسها الريشة التي كنا نغمسها بالحبر الموجود بالدواة من أجل الكتابة وهي مُثَبَتةٌ على المقعد فأخذت مني الماسكة مع الريشة الفرنسية وتناولتها بيدها ثم ضغطت بالريشة على المقعد وكسرت الريشة فاستغربت لفعلها هذا وتعجبت !! فشَرَحتْ لي عن السبب الذي جعلها تَفْعل ذلك وهو أنه من واجبنا أن نكتب بالريشة العربية وليس بالريشة الفرنسية ، ولما كبرت فهمت الأبعاد العميقة التي كانت وراء تصرفها هذا ، وهذا ما يذكرني بما فعل غاندي مع قومه عندما تحررت بلاده من الإنكليز وإنني سأحاول أن أروي قصة غاندي فيما بعد .

مع الصناعة الوطنية (٢)

كان أسبوع الصناعة وسيلة ناجحة لتعريف المواطن على سياسة الدولة نحو الصناعة والتصنيع وما تقدمه من جهود وإمكانيات وتسهيلات في سبيل تحقيق احتياجاتنا في هذا المجال الهام ، ودراسة ما تحقق ، وما يمكن أن يتحقق في المستقبل مع الاستفادة من طاقات المجتمع المتوفرة له بما يعود عليه بالخير والقوة والفائدة .

فسياسة الحكومة قائمة على أساس دعم القطاع الخاص ، والمبادرة الفردية لإقامة الصناعات المختلفة ، كما تمنح الجوائز في سبيل خلق مناخ مناسب للصناعة ، وتقوم بدعم الصناعات التي تحتاج إلى استثمارات ضخمة والتي

يكون مردودها غير مشجع في البداية .

ومن أساليب الدعم ووسائلها ، إنشاء الصندوق الصناعي لتقديم القروض للقطاع الخاص ، لإقامة المصانع بدون فوائد ، وكذلك صندوق الاستثمارات العامة الذي يمول المشاريع الصناعية وغيرها والعمل على جلب الخبرة والتكنولوجيا الأجنبية المتقدمة وتشجيعها للعمل بالمملكة .

والجدير ذكره أن دخولنا مجال الصناعات البتروكيمائية ، قد يساعدنا على إنتاج الخيوط الاصطناعية التي تمكننا كشرقيين من استرداد مكانتنا في مجال الصناعات النسيجية كما عرفنا التاريخ من قديم الزمان .

ولو أجرينا دراسة علمية على أنواع المشاركة التي كانت جداتنا تقوم بها في مجال الصناعة وأساليبها في عدة أقطار إسلامية في أوائل هذا القرن ، حيث كانت الحكومات تشجع المهن ولم يكن هناك تأثيرات للعولمة والاستعمار الاقتصادي أو أعمال التغريب الذي يقضي على الحرف والصناعات والمهن في ربوع بلادنا العربية والإسلامية وتعمل على تغيير أساليب حياتنا ومهننا وأعمالنا أو يفقدنا خاصية الاعتماد على أنفسنا ، ولم تكن هناك تلك التيارات الفكرية الضارة ، وكان الناس يومئذٍ متمسكين بأهداب الدين ، لوجدنا ما يدهشنا وينير بنا سبيلنا بالنسبة للريف أو المدن ، وما يعود بالفائدة الكبيرة على المجتمع وأهدافه .

ولو نظرنا إلى معارض التراث والمعارض الفنية التي تقيمها الهيئات الأهلية كالجمعيات الخيرية أو الهيئات الحكومية أو المدارس والجامعات بين حين وآخر ، لرأينا فيها ما يفتح لنا طريق الأمل المشرق ، وكذلك نجد فيها بعضًا

من نماذج التراث الذي كانت تصنعه جداتنا على سبيل المثال لا الحصر ، كما أن المشاغل التي افتتحتها الرئاسة العامة لتعليم البنات هي نموذج طيب نستطيع أن نتوسع في فكرتها حتى تشمل أكثر المناطق في المدن ، ولكي تحقق الاكتفاء الذاتي وتقضي على موجة الغلاء الفاحش في الأجور ، كما أن تطوير الفكرة كيفًا ، يساعد على بلوغ الإنتاج مرحلة المعاصرة حتى تلبي الحاجات الفعلية للحياة في الوقت الحاضر وتتناسب مع تطوره .

وتراث أجدادنا حافل وغني بما يمدنا بالطاقات ، ويجب ألا نعتبره شيئًا نحتفظ فيه للذكرى وكأنه شيء محنط ، ولكن من واجبنا إقامة الجسور بيننا وبينه ، ونترك جموده وما لا يتناسب مع العصر ، وأن نستوحي لآلئه ، ونعطيه اللمسات العصرية ، ونقوم باستغلال التكنولوجيا العصرية في سبيل خدمته بما يبرز الخاص والمميز .

وهناك صناعة تعبئة التمور وصناعة ملابس الأطفال وصناعة المواد الغذائية ، وصناعة السجاد إلى غير ذلك من الصناعات التي يمكن أن تقوم بها المرأة في بلادنا .

أذكر أنه في العام الماضي ، قرأت في إحدى الصحف المحلية جوابًا طريفًا لسؤال موجه لإحدى السيدات وهو عن أسباب نزولها إلى السوق ، إن دل على شيء فإنما يدل على بعد هام من أبعاد نهضتنا يحتاج منَّا إلى اهتمام كبير وتركيز في استلهام التراث .

تجيب «مشاعل» على السؤال بأنها تنزل إلى السوق من الطفش والملل ، فكم هناك مثيلات «لمشاعل» هذه وحالاتها نستطيع أن نلقي الضوء عليها عن

طريق دراسة علمية ، وكيف ينفق وقت المرأة باعتباره ثروة قومية هامة ، بل الأصعب من ذلك والمؤلم للنفس حقًا ، أن يكون هذا الوقت صيدًا ثمينًا لأعدائنا لترويج بضائعهم والوقوع في فخ دعاياتهم السياحية التي يجذبونها إليها عن طريق الصورة والمجلات التي تخدم أغراضهم ، وينقلون مشاهدها إلى عالم الخيال والأحلام الوردية الحالمة ، ويقدمون جميع التسهيلات والإغراءات لتحقيق أغراضهم في غزونا اقتصاديًا وثقافيًا .

هذا مما يجر المرأة إلى استهلاك طاقاتها البناءة ، بالإضافة إلى استهلاك طاقة الأسرة وهي وحدة المجتمع الأساسية ، وبالإضافة إلى الخسارة المادية ، فقد يكون في ذلك خسارة معنوية أيضًا إذا كان نزولها إلى السوق من أجل قتل الوقت والتسلية ، وما يقترن بذلك من تبرج في القول والمظهر .

قال تعالى : ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب:٣٣] ، ثم أليس اليهود هم الذين يعملون على ابتزاز الأموال وهدم الأخلاق ، كما يسيطرون على أغلب معامل الأقمشة الأوروبية ومصانع العطور والمساحيق ويمتلكونها في أغلب الأحيان .

إننا مقتنعون كمجتمع إسلامي بما جاءت به شريعتنا من أن دور المرأة الرئيسي هو رعاية بيتها وزوجها وأولادها ، ولكن أليس هناك بعض من الفتيات أو النساء لسن مسؤولات عن بيتٍ وزوجٍ وأولاد ؟ ثم أليست سنوات عمر المرأة وأيامها قد يكون فيها وقت الفراغ ما يكون مضيعة للوقت وهدرًا لطاقات المجتمع فيما إذا تذكرنا أن الإسلام أعطاها حقوقها الإنسانية ، وأنها محاسبة على عمرها ووقتها أين أنفقته ، وعلمها ماذا فعلت به ، وكذلك الحال بالنسبة لما لها ؟ أو ليست ظاهرة الحفلات التي تقوم بها بعض النساء

بمناسبة وغير مناسبة وحتى لو كانت تقليدًا لثقافة الغرب أحيانًا هي نوعًا من التسلية التي تقضي بها وقت فراغها لمعالجة الطفش والملل الذي ينتابها ؟

لو قارنا حالنا الآن بحال جداتنا قبل ثلاثين عامًا أو أكثر يوم كانت المرأة لا تنزل إلى السوق إلا بشكلٍ نادر ، وكان زوجها يقضي لها أكثر حوائجها ، ترى ما الذي تغير الآن ؟ إن الذي تغير هو أن أفواج النساء أصبحن في هذا الزمن يتدفقن على الأسواق للبحث عن الألبسة الجاهزة والموضات الغربية في دُور الأزياء ومنتجات شركاتها ، سواء من داخل البلاد أو خارجها .

تراني أسأل نفسي : لو أَنْفَقَتْ أغلب هؤلاء النسوة أوقاتهن هذه في حياكة الملابس سواءً في بيتها أو في مشغل نسائي في حيها ، أليس هذا أجدى لمجتمعها وأنفع ، ألا يعد هذا مشاركة في بناء نهضة الوطن والصناعة الوطنية وليس أدل مثالًا على ضرورة إعادة توظيف طاقات المرأة فيما يحقق الإنتاج لمجتمعها ، من أن تجاهلنا لهذه الطاقات في الفترة الماضية وطريقة تعليمها وتوظيفها دعاها إلى أن توجه نفسها إلى العمل التجاري الذي لا يرتكز على دعامة صناعية وطنية ، فكانت النتيجة أن أصبحت هذه الطاقات مسخرة من أجل تصريف البضائع الأجنبية والملابس وأدوات التجميل ذات الصناعة الأوروبية وترويجها عن طريق بيعها لبنات جنسها ، سواء عن طريق المحلات التجارية أو دُور الأزياء التي أصبحت منتشرة في كل مكان ، ووظيفتها تقتصر على استيراد البضائع الأجنبية من ملابس جاهزة ولوازم للمرأة وما شابهها وعرضها للبيع بطريقة تيسر على الزبونة شراء ما ترغبه دون أن تتكبد مصاريف السفر إلى الخارج ، وهذا كله لا يدخل في مجال بناء أنفسنا بناءً حضاريًا سليمًا يتفق مع أصالتنا وتحقيق ذاتنا الحضارية في جميع جوانب الحياة .

بالإضافة إلى شغل وقت فراغها بالعمل التجاري نتيجة وجود ميول وطاقات لا يمكن لها أن تنفقها في أعمال التدريس بسبب عدم الميل له ، فإن الملل قد يدفعها إلى معالجته بالنزول إلى السوق بدون حاجةٍ فعليةٍ وحقيقيةٍ للأسرة ، فقد تكون بعد ذلك ضحية « للأوكازيونات» ، وتعود من السوق وقد ناء حملها بما تسوقته من البضائع ، كل ذلك لكي تعالج مشكلة وقت الفراغ بطريقتها الفردية التي تتبع التيار العام ، ولو كان الأسلوب خاطئًا ، وتتبع فنون الدعاية الغربية لاقتصادهم وإعلامهم ، وتكون فريسة لها ؟!!

وطريقة ثالثة تتبعها المرأة وتنشأ عن عدم التخطيط السليم لاستيعاب طاقات المرأة في ما يبني مجتمعها ويناسب ميولها وظروفها الأسرية والاجتماعية وإمكانياتها ، هي أن تكون سببًا مباشرًا في حث زوجها أو أخيها على قضاء العطلة الصيفية في الخارج ـ بدلًا من أن ترشده إلى الصواب في الدين والدنيا في بناء نهضة البلاد ــ وما يتبع ذلك من إنفاق للأموال ، وتبديد لميزانية الأسرة ، وضرر بالمصلحة العامة عندما يفتح الباب على مصراعيه لتنمية الموارد السياحية للبلاد الأجنبية ، فمن واجبنا إنشاء المصانع التي يعمل ويدرس بها الرجال ، والتي هي بنفس الوقت تنمِّي الأعمال اليدوية والأعمال المنزلية للمرأة في المجتمع .

والصناعات اليدوية والمنزلية تُجَنِّب المجتمع في هذا العصر ، مثل أن تقتصد في اقتناء الملابس بالنسبة للمرأة العاملة التي تذهب إلى عملها خارج البيت ، وتوفير ظاهرة مزاحمة المرأة للرجل في المواصلات العامة ، وضمان عدم ترك الأم لبيتها من أجل العمل ، وعندما تكون المرأة مرتبطة بعمل تحبه ، وتشعر

أنها تنفع الناس به ، فإن ذلك يجعلها تثير همم الرجال بأن يعملوا على التفكير في إعمار البلاد ، فهي الأم ، وهي الأخت ، وهي الزوجة ، وسيكون لها تأثيرها على الساحة إن لم يكن في الوقت الحاضر ، ففي المستقبل القريب بإذن الله إذا ساعدناها على الثبات على عقيدتها وأصالتها .

وهذا ما يدعونا إلى التفكير دائمًا ، بأن التنمية التي يحتاجها مجتمعنا وأفراده وجماعاته ، هي متكاملة النواحي .

ومما قرأته له ، أن الحياكة تخفف من أسباب توتر المرأة ، فيقال : إنه في السنوات الأخيرة قد ازداد عدد السيدات الأمريكيات اللائي يقبلن على شراء أدوات الحياكة والتطريز بشكل ملحوظ عما كان في الأعوام الماضية ، وبعبارة أخرى ازداد إقبال المرأة الأمريكية على حياكة ملابسها في المنزل .

وتشير مبيعات الشركات إلى ارتفاع نسبة المبيع من نماذج التفصيل وآلات الحياكة والأدوات الصغيرة التي تستخدم في التطريز والخيوط على اختلافها .

ولدى بَحْث هذه الظاهرة ، وجد أن الرغبة في التوفير تلعب دورًا مهمًا فيها ، كما أنها قد تكون وسيلة لشغل وقت المرأة ، ويقول أحد العلماء المختصين بالاجتماع : «إن هناك كثيرًا من أسباب التوتر التي تحيط بالمرأة ، وأعتقد أنه مما يخفف عنها أنها تجلس إلى ماكينة الحياكة لتصنع شيئًا» ، أليست الحكمة التي جاءت مع الحديث الشريف ، كانت أدرى بنفوس البشر : «**علموا أبناءكم السباحة والرماية ، ونعم لهو المرأة في بيتها المغزل**» .

*****